صور من الحياة :

خيـــانة امرأة

٢

للاستاذ كامل محمود حبيب

يافارتى :

هذا صاحبي انضم على أشجانه حيناً من الزمان ، يكتم الأسى بين جوانحه ويدفن الشجي بين ضلوعه حتى أثقله الهم وأرهقه الوجد ، فجاء ينثر عبرات قلبه بين يديك علك تسمع إليها أنات روحه الحزينة أو تحس وجيب فؤاده الكسير ، فتلفحك حرقة اللوعة أو تهزك سفعات الضيق ، فتهديه الى الرأى الذى عزب عن فكره وتبصره بالصواب الذى ند عن عقله . فهل تعينه برأى منك فيه العقل والصواب ؟

كامل

قال لى صاحبي « ... وانطوت الأيام فاذا أنا إلى جانب فتاتى القاهرية — مرة أخرى — أبثها لواعج الهوى ، وأشكو إليها حرق الغرام : ثم مالبث أن سميت على خطبتها فتزوجتها . ووقف أبى إلى جوارى ليلة الزفاف — وقف كارهاً ، وهو ينفضى بنظرات فيها الألم والحسرة ، فاضطراب قلبي وتزعزعت سكينتى . ورحت أنظر إلى وجه أبى في خلسة وقد كسته غلالة من الهم والضيق ، فما راعنى ، إلا عبرات حائرة فى عينيه ماأستطاع أن يكفكفها ، فانفلتت من بين محجريه ... انفلتت لتهوى على كبدى كأنها جمرات متقدة يتلظى وهجها فتنفث فى الحيرة والقلق ، وتسل البشر من قلبي وتستلب الفرح من فؤادى . واستحالت حالى — فى لمحة واحدة — فبدا لى هذا المهرجان كأنه ينضم على جماعة من السفهاء يسخرون من غفلتى وحماقتى ، وتراءت لى تلك الأنوار كأنها تسطع حوالى لتكشف للناس عن غباوتى وجهلى . وخيل إلى أننى صنعت هذه البهجة الفوارة لينعم بها أخلاط من الناس ، ولأظل أنا وأبى فى منأى عنها ، يعانى هو سفعات أفكاره المضطربة وأقاسى أنا عنت الخاطرة السوداء التى أرتها فى نفسى عبرات انفلتت غصباً من بين محجرى أبى الشيخ .

انطوى الليل إلا أقله وأنا فى شرفة الدار يضطرب خيالى بصورة أبى الباكى الحزين ، وإلى جانبي زوجتى الحبيبة أبسم لها فى ذهول وأعانقها فى فتور ؛ لا أكاد أسمع صدحات الموسيقى وهى ترن فى أرجاء المكان فتعمه بالنشوة والمرح ، ولا أطرب للصوت الملائكى الرقيق وهو يشدو بأغنية سماوية تهتز لها القلوب وتضطرب الأفئدة ، ولا أشعر بالهوى الطليل وهو يرف حوالينا نديا يبعث فى النفس النشاط والقوة ، ولا أكاد أحس بالسعادة التى كان يصبوا إليها قلبي منذ زمان بعيد وهى الآن بين يدى لاتدفعنى إليها نزعات الهوى ولا تجذبنى إليها نزوات الشباب .

وأحر كبدى إن صورة أبى ماتبرح تتشبث بخيالى ... صورة أبى وهو يتوارى فى ناحية من المكان وعلى وجهه غلالة من الهم والضيق وفى محجريه عبرات حائرة لايستطيع أن يكفكفها فتنفلت من بينهما غصباً .

ورأيت أبى لأول مرة فى حياتى — حزيناً يطحنه الأسى ويضنيه الكمد ، ولأول مرة فى حياتى أحسست بالهم العارم يتدفق فى قلبي ليمصف بمرحى ... مرح الشباب العابث الطروب .

واعجبا ! أفكان أبى الشيخ يرى بعينى تجاربه أن من تحت قدمى هاوية سحيقة أوشك أن أنزلق فأتردى فيها فلا يمكننى إلا القرار .

وفى بكرة النهار أسرعت إلى أبى عسى أن استجلى بعض

العلماء الذين تتلمذ عليهم والذين قاموا بتسخير الطاقة الذرية ... كما يقول هو نفسه فى نهاية كتابه عن الذرة ... لخدمة بلادهم ولا دافع لهم غير باعث الايمان . . الايمان بحق وطنهم عليهم وحق هذا الوطن فى أن يحيا وأن يحتفظ بمثله الاجتماعية والروحية .

كان الرجل عالماً فى غير ادعاء ، وإن بلغت نفسه أحياناً إلى حب الثورة والسخط فلأننا لم نحاول أن نعطيه من المكانة مايليق بالانسان العادى فضلا عن الانسان الممتاز ، وإذا كانت حياته قد اتصفت ببعض الاضطرابات والقلقلة فانما جاء هذا كله من التناقض بما له من حق فى أن يعيش الحياة الملائمة فى الجو العلمى الذى يطلبه وعن حقه فى الوصول الى أسمى المراتب وأعلى الدرجات .

لنا الله فى هذا الرجل العظيم .

عبد الفتاح البربرى

١٢ ٠ ٣٤

خلجات ضميره ، غير أني علمت أنه يروح الدار عند صلاة الفجر إلى ... إلى القرية ، فانكفأت إلى حجرتي ..

***

وتعاقبت الأيام تطوي وساوس نفسي وتمحو ظنون روحي وإلى جانبي زوجتي تنفذ إلى طوايا قلبي في رفق ، وتمهد لي أسباب السكينة بعقل سليم وترعى حاجات داري بيد صناع . واطمأنت خواطري إليها أحسد فيها مثابه وأمناً واستشعر في كنفها الراحة والهدوء ، غير أنها لم تستطع - يوماً - أن تكشف عن الصورة التي تشبثت بخيالي حيناً من الدهر ... صورة أبي الباكي الحزين

ومرت سنتان ثم أشرقت البهجة في داري وفي قلبي حين اجتليت النور من جبين ابني الأول ، وسطعت الفرحة في روحي وفي روح زوجتي حين رفت علينا أول نسمات الطفل تملأ الحياة أملا وسعادة ودفعتني فرحتي ، فكتبت إلى أبي « ... بالأمس أشرقت في داري طلعة جديدة فامتلأ قلبي بالراحة ، وأفعم فؤادي بالسعادة ، وتألقت روحي بالفرح ؛ وإني لأرنو إليه فأرى فيه سمات من سماتك ولمحات من صورتك . ولقد عقدت العزم أن أسميه باسمك علّه يكون طالع سعد لنا . ليته يظفر بلمسات من بنانك الرقيق أو بدعوات من قلبك الطاهر فتشمله البركة ويكتنفه اليمن .. ! »

وقرأ أبي كلامي فشمر يهيىء نفسه للسفر وقد نسي أنني تمردت - يوماً - على نصيحته وامتهنت رأيه وعققت أبوته ، فجاء هو وأخوتي ومن بين أيديهم البهجة والاستبشار ومن خلفهم الهدايا .

بالقلب الأب ! إن فيك الرقة التي لا تحمل الحفيظة ، وفيك الحنان الذي لا ينطوي على الضغينة ؛ وفيك الرحمة التي لا يشوبها الغل

أما أنت يابني ، فقد كنت لأبيك بشير يمن وسعادة ، فأنت قد محوت - بابتسامة واحدة منك - كل ما كان بين أبي وبيني ، وخلقت منا - بنظرة واحدة - أباً وابناً جديدين : أبا فيه العطف والحنان ! وابنا فيه الطاعة والاخلاص . فما أسعدني بك ؛ يابني !

* * *

وانطوت سبع سنوات ، ثم استحالت حال الزوجة الحبيبة على حسين فجأة ، فهي تنطوي عني في غير سبب ، وتهمل شأني في غير نزاع ، وتنشغل عني في غير خصام . وتدفق الشك في قلبي هيناً مرة وعنيفاً مرة ، فما كان للمرأة أن تغير خصالها إلا أن تسيطر على عقلها فكرة أو تشغل بالها حادثة ! ورحت أدفع الشك عني حين خيل إلي أن أولادنا الأربعة يملأون فراغ قلبها وفراغ يومها

وغبرت أياماً أدفع ظن السوء عن نفسي ، غير أني رأيتها تسرف في الزينة وتفرط في الانفاق . أفكانت تسرف في الزينة - خشية أن تصفعها الشيخوخة الباكرة فتعصف بنضارتها وتعبث بروائها وهي ما تنفك تنغمر في شواغل الدار والولد والزوج ؟ أفكانت تفرط في الانفاق لتسد حاجات الدار وإن الغلاء ليصفع الوظف صفعات عنيفة قاسية توشك أن تلصق يده بالتراب ؟

ورجعت إلى الدار - ذات مرة - قبل ميعادي فلم أجدها لقد خرجت المرأة وحدها .. خرجت إلى الشارع ، إلى الدنيا . ورقفت أرقب الطريق فرأيتها مقبلة تستحث الخطى . ورحت أناقشها في رفق وأجادلها في عنف فتفلتت الفتاة .. فقلت في نفسي « .. إن الفتاة إذا تفلسفت في الدار جحت بها نزوات الطيش فأنكرت وظيفتها وجحدت مكانها فتستحيل طمأنينة الزوج إلى قزع ماينتهي ، ويحور هدوء الدار إلى ثورة ماتنقضي . إن المرأة التي تلد الفلسفة تلد الهم والأسى والضيق في نفس الرجل .. »

وارتابت نفسي في كل حركات الزوجة ، وبدا لي تاريخها القديم ، يوم أن كانت فتاة في دار أبيها تنعم بالحرية التي يزينها الشيطان وتطمئن إلى النزعات التي تزوقها الحضارة ، لا تخشى الرقيب ولا تخاف السيد ، تنفلت من الدار وحدها لتلقى فتاها أنا لدى الأصيل أو بعد مغرب الشمس ، نستمتع معاً بالخلوة ونسعد بالنزهة . أفكنت حقاً فتاها الأوحد أم كنت رفيقاً بين رفاق وصاحباً بين صحاب ، تتفلله فتوحي إليه بأشياء وأشياء وهو في عمى من خداعها ومكرها ؟ لعلها اليوم حنت إلى صاحب قديم !

ووسوس لي الشيطان أن أرقبها من بعد ، غير أني لم أستطع فما كان لي أن أفعل وأنا موظف حكومي أبكر إلى الديوان فلا أستطيع أن أبرحه إلا أن يأذن لي الرئيس ، ورئيسي رجل غليظ الكبد جافي الطبع فيه الصلف والكبر .

ومرض رئيسي - يوماً - فتفلتت رفاقي في المكتب وتسللت من الديوان .. تسللت لأجد زوجتي في داري تجلس إلى رجل غريب على سريري في حجرة نومي ..